بذلك وضعت بذور فنائها، وعجلت في سقوط المدينة وتحويلها إلى مدينة جاهلة أو ضالة أو فاسقة.

إن العالم الإسلامي منذ عصور المرابطين كان قد أسس في فكره العام معاول هدم وجوده من خلال خروجه عن مقاصد الشريعة السمحاء أولا، ومن خلال تعطيل دور أحد أقوى دعائم المجتمع ألا وهي المرأة.

إن ابن رشد حاول من خلال التطرق لمسائل المرأة في تلخيصه لكتاب السياسة لأفلاطون أن يلفت حكام المدن الإسلامية إلى ضرورة إشراك المرأة في تدبير شؤون المدينة الإسلامية.

المبحث الثالث

إشكالية الحرب والسلم في الخطاب الرشدي

علاقة الإنسان بالحرب وأشكال العنف قديمة قدم الإنسان ذاته، ذلك أن العدوانية ضرورية للحفاظ على النفس والمأوى والغذاء، وأن الطّبيعة فرضت على الإنسان أن يكون صائدا ومحاربا قبل كل شيء، وبالتّالي أصبحت الحرب مسلمة اجتماعية، وحتمية سياسية، وقانونا يحدد مبدأ الأفضلية والقوة بين البشر، وليس هناك مجال للشك أن الحرب سبقت فكرة السلم، وأن السّلم لم يتجل كمفهوم إلا بعدما وصلت الحرب إلى منتهاها. وأصبحت ظاهرة مقلقة، تستدعي المجاوزة والتفكير في حالة اللاحرب، أو على الأقل تضمينها بقيم إنسانية.

أسبقية الحرب على السلم يدل على أن الحرب فطرية في الإنسان، ونزوع حيواني تمليه النفس الغضبية كما جاء في الاعتقاد الأفلاطوني [1]، ولعل داروين لم يكن مخطئا حين ربط العلاقة بين عدوانية الإنسان والحيوان بغائية البقاء وقانون التناحر الطبيعي الذي يفرضه مبدأ الانتخاب الطبيعي. فاقتناص الفريسة ذاتها حرب، والقتال إعلان أن للحمى حام وسيد.

وبيار كلاستر (P. Clastres) في أبحاثه حول العنف والحرب [2]، يؤكد أن الحرب أصل ثابت في عقليات الجماعات البشرية، وأن صيد الإنسان للحيوان تطور إلى صيد الإنسان للإنسان. ومعنى ذلك أن الحرب تغدو مسلمة بشرية، تاريخية، اجتماعية.

١ - بشرية: لكونهم جبلوا على العدوانية والعنف، وأن الإنسان عدواني بالطبع في الأصل كما ذهب إلى ذلك أرسطو في كثير من نصوصه، والتي نقتبس منها النص الموالي: "أحيانا قد يُحسب شجاعة ذلك الغضب الذي يشتبه بها، فَيعد رجالا شجعانا أناس ينعشهم الغضب وحده، كما يأخذ الحيوانات المُفترسة إذ تنقض على من يجرحها [3]". فالعدوانية تُفهم من خلال المُعطى الطبيعي أنها وسيلة انتقام.وابن خلدون في مقدمته حاول أن يفسر ظاهرة الحرب من خلال ردها إلى أصل الانتقام: "اعلم أن الحروب وأنوا ع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها اللّه. وأصلها إرادة

---

(١) التيموس مصطلح وظفه أفلاطون للدلالة على القوة الغضبية، وهو مصطلح منحوت من عنفوان الخيول البرية، وينقسم التيموس إلى مبدأين:الميغالو تيموس الذي يتجه صوب نزع الاعتراف بالتفوق بالقوة من الآخر، والثاني الإيسو تيموس الذي يفيد نزع الاعتراف بالتكافؤ من الأخر بالقوة. ومنه نستنتج أن الحرب عند أفلاطون تنطلق من تصادم المبدأين أصلا.

(٢) له مجموعة من الأبحاث الأنثروبولوجية تخص موضع الحرب والعنف، من أشهرها المجتمع ضد الدولة، وأصل الحرب.

(٣) أرسطو، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، (م . .سابق)ص .ص ٣٠٨ ،٣٠٧.

انتقام بعض البشر من بعض، ويتعصب لكل منها أهل عصبيته[1]". وابن خلدون كعادته العلمية، يحاول أن يستقرأ الأسباب الكامنة وراء حركة الانتقام، فيقول: "وسبب هذا الانتقام في الأكثر: إما غيرة ومنافسة، وإما عدوان، وإما غضب لله ولدينه، وإما غضب للملك وسعي في تمهيده[2]". ولعل السبب الأخير هو الذي يرتبط مع الفكر السّياسي.

إن العنف طبع من طباعنا الغريزية، وما الحرب إلا الصورة المكتملة عنه. إن الحرب مظهر خارجي لتلك القوى الكامنة في جبلتنا، لذا نلاحظ الإنسان يؤرخ للحرب أكثر من تأريخه للسلم أو الأمن.

٢ – اجتماعية: كل الجماعات البشرية جعلت من الحرب طقسا من طقوسها، تتخذ العبادة من خلال ما تطرحه من رموز ودلالات تضفي على الحرب سلطة اللاهوت، فالحرب كالصلاة، والأعراف القبلية تمجد الحرب لأنها قوام العصبية وأساس الهيمنة، والمجتمعات لم تصنع مدنيتها إلا بعد أن لعبت الحرب الدور في تشكيل أولي التمدنات.

٣ – تاريخية: كل المدونات التاريخية التي تعكس بالضرورة الأنماط الثقافية وأشكال التعبير والتفكير، تتغنى بالمجد التليد الذي تصنعه الحرب بوصفها مقياس القوة والحضارة، وحتى الأساطير والملاحم أغلبها تدور حول الحرب والأعمال البطولية.

ومنه نستنتج أن تاريخ الإنسان هو تاريخ الحرب.

والخطاب الديني مفعم بالحرب والقتال، والدّعوة إليه ترهيبا وترغيبا، فالقرآن الكريم حضر السلم في نصوصه بضع مرات فقط لفظا. في حين الحرب والقتال ذكرت عشرات المرات أحيطت بهالة قدسية، واعتبر الجهاد أسمى عمل يقوم به المؤمن، والنّص النبوي قارن منزلة المجاهد بمنزلة العالم حين ساوى حبر العلماء بدماء الشهداء.

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، ج ١، ص ٦٨٧.
(٢) المصدر والمكان نفسه.

ومعنى ذلك أن السلم مجرد حلم أو نزوع يوتوبي حين يجد الإنسان نفسه أمام خطر يهدد حياته وجماعته، ففي الحقبة المعاصرة لم يظهر السلم كمطلب وقيمة أخلاقية وإنسانية إلا بعد أن شهد العالم حربين عالميتين.

إذن فالحرب واقع وحادث يؤثر في مجرى التاريخ، وليس من التطرف القول أن الحرب جوهر، وأن السلم لحد الساعة مجرد عرض، نستدعيه إلى ساحة شعورنا عندما تعوزنا الوسيلة لتحقيق تفوق الذات، أو عندما نريد الحد من سلطة وقهر الآخر. إن الجماعات البشرية عندما تفقد مسوغات الحرب ومؤهلات القتال تجنح إلى السلم كسلوك سحري. ومن ما سبق هل الحرب جوهر كامن في الإنسان أم مجرد عرض؟

وأيهما ضروري لضمان مسيرة الإنسان والتاريخ والحضارة؟

لاشك أن مقولات السلم لم تكن حاضرة في الفكر الاجتماعي والسياسي إلا كمقولات إستراتيجية ودفاعية تكرس منطق الهروب إلى الأمام، وأن السلم في مخيالهم لم يخرج عن دائرة أخلاق الضعفاء ومطلب الجبناء. فالفيلسوف نيتشه (F.Nietsche) أكد في كتابه جينيالوجيا الأخلاق أن الإرادة هي القوة، أن المحبة والتسامح والمساواة والعدل مجرد قيم جوفاء صنعها الضعفاء ليحدوا بها من قوة السادة والأقوياء.

إن فلسفة التّفوق ترفض السلم كمعطى أجوف لا معنى له، وترى في الحرب حقيقة الذات المغامرة. وأهل المدينة الفاضلة يمتلكون هاجس التفوق في مجال الفضائل والكمالات، وبالتالي فإن الحرب تصبح من الفضائل العملية. وعلى هذا الأساس فإن إشكالية الحرب في فلسفة ابن رشد لها ما يبررها، وأول ما يمكن أن نسوغ به رأيه في الحرب استنطاق المخيال واللاشعور الجمعي العربي الذي يقدس الحرب، ويجعل منها كينونة وجوده، ومصدر وجوده الطبيعي. لقد أصبحت الحرب في مخيالنا العربي أكثر من الوجود ذاته. فالشّعر العربي نفسه يذهب إلى تمجيد الحرب والقوة، وهو يعكس فلسفة خاصة تمجد الفارس والبطل وتذم الجبان.

فقصائد عمرو بن كلثوم وعنترة العبسي والمتنبي فيما بعد كلها تصب في نهر واحد المجد في الحرب وبالحرب. فعمرو بن كلثوم نستشف ذاك من خلال نونيته الشهيرة التي منها:

أننا نصدر الرايـــات بيـض * ونردهن حمرا قـــد رويـنـــا

أما عنترة العبسي فقصيدته الميمية تعكس الحرب كونها أداة إثبات للوجود، فلو لا الحرب ما استطاع أن ينتزع مركزه في القبيلة فلنتأمل قوله التالي:

هلا سألت الخيل يا بنت مالك * إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

يخبرك من شهد الوقيعة أنني * أغشى الوغى وأعف عند المغنم

والمتنبي يحذو حذو من سبقه من الشعراء معتبرا الحرب أساس الوجود التاريخي، وأن الإنسان المتفوق يتفوق فقط بالقوة التي رمزها الأول السيف، ولنتأمل بيته المشهور:

الخيل والليل والبيداء تعرفني * والسيف والرمح والقرطاس والقلم

إن الأدب العربي تطرق إلى موضوعات الحرب أكثر من موضوع السلم، والإنتاج الفلسفي ذاته لم يخرج من دائرة التنظير للحرب، خاصة ومنطق حرب المدن الفاضلة والضالة.

إن خطاب السلم لم يتجل كقيمة إلا في الخطاب الفلسفي والديني، خصوصا عندما تتأزم القيم الأخلاقية والإنسانية، ويصبح مصير كل البشر في خطر محدق.

وبوصف ابن رشد فيلسوف المغرب والأندلس، وممجد العقل والإنسان، وصاحب منهج قائم على ثنائية الواقع والمعقول، والفلسفة والشرع. ومساءلته حول السلم والحرب من خلال مؤلفه الضروري في السياسة تكشف عن مدى ارتباط التغيير السياسي بالحرب كحتمية.

فأيهما ضرورة للدولة الحرب أم السلم؟ هل يتنافى السلم مع فضيلة الشجاعة؟ وهل يمكن تصور مدينة السلم؟ وأي الأنماط الاجتماعية أقدر على صناعة السلم؟ منذ البداية نستشف أن ابن رشد اتخذ موقفا من التجمعات البشرية من حيث طبيعة التجمع، إذ هي نوعان:

أ- التجمعات الفاضلة:

تمثل أقلية في المعمورة تتوسط مدنا ودولا أغلبها جاهلة، تجعل من القوة العقل حكما ومعيارا للفضيلة، لأجل تحصيل السعادة، ويأتي ذلك بطلب الحكمة والتعمق في الشريعة لغرض بناء مجتمع مستقبلي فاضل. والتجمع الفاضل بما أنّه يجعل الشجاعة فضيلة كبرى فهو حتما مجتمع يتقن الحرب ويدعو لها من باب العدالة ودفع الضلالة.

ب- التجمعات الجاهلة:

تمثل الأغلبية الساحقة من التجمعات رغم كونها غير متجانسة في اللون أو الدين أو العرق. لأن هذه التجمعات سريعة التبدل من حال لآخر لعدم امتلاكها العقل والحكمة، وسيطرة الهوى والنزوع إلى التفوق والكرامة.

ومن خلال التقسيمين السابقين، ونلاحظ أن ابن رشد يجزم أن العلاقة بين التجمعين تتجه نحو الحرب والعنف، لأن كل مدينة من المدن الضالة ترغب في نزع الاعتراف بالقوة من المدن الأخرى.

٢ - مفهوم الحرب والسلم عند ابن رشد:

١-٢- الحرب:

الحرب من المنظور الرشدي هي نزوع الجماعة أو الفرد إلى العدوانية واستعمال القوة الطبيعية أو غيرها لترويض وإكراه الآخر، أي قهر الإنسان لأخيه الإنسان.

والحرب عند ابن رشد تتخذ شكلين:

١- الحرب الاضطرارية:

يضطر إليها الحاكم لدفع الضرر أو جلب منافع، ولدفع مجمع الأشرار، ذكرها أفلاطون في جمهوريته: "أما إذا رأى نفسه ضحية ظلم، فإنّه يثور غضبا ويمتلئ انفعالا، ويناضل من أجل ما يعتقد أنه العدل[١]". بيد أن ابن رشد وظفها في سياق بناء مشروع سياسي جديد يخلف الأنظمة الأندلسية المتهافتة، والتي يصدق عليها قول الشاعر آنذاك:

مما يزهدني في أرض أندلس * أسماء معتصم فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها * كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

لأن المدن الأندلسية أضحت مدنا للفتن والجهالة، ولتقويض معالمها وأنظمتها نظّر ابن رشد للحرب الاضطرارية، ورغّب الملك الحق في شن الحرب على أنظمة الفساد.

أما في حالة ما إذا تأسست المدينة الفاضلة فهي مضطرة لشن الحرب لجل غايات متعددة: ".. وإنما يكون ذلك عن اضطرار: إما على القصد الأول أن يأخذوا من سائر المدن ما يكرهونها عليه من الأموال، لضرورة تدعوهم إلى ذلك أو طلبا للأفضل، وإما على القصد الثاني بأن يكون (استعدادهم للحرب) بمثابة وقاية المدينة مما يمكن أن يروِّعها من خارج[٢]".

٢- الحرب العادلة:

يسعى إليها أهل المدنية الفاضلة اعتقادا منهم أنها فضيلة وحكمة عقلية، ومرتبة علوية، تجلب السعادة الكبرى. والحرب العادلة مشروعة داخل المدينة الفاضلة

---

(١) أفلاطون، الجمهورية، ص ١٩١.

(٢) الضروري في السياسة، ص ٨٢.

بغية إرساء القيم وتأديب المارقين من الحفظة، ومشروعة ضد المدن الجاهلة من أجل إخراج أهلها من الجهالة.

إن المدينة الفاضلة كمشروع سياسي عند ابن رشد لا يمكن أن يقوم إلا بالتدرج التصاعدي، الذي يخضع لمبدأ تحول المدن الجاهلة من صورة لأخرى حتى ينتهي التحول عند المدينة الفاضلة(١).

وإذا حدث أن نشأت مثل هذه المدن تنشأ بالحرب العادلة أو الاضطرارية، لأن الفضيلة نفسها مبنية على أربعة مبادئ رئيسة: الحكمة – الشجاعة – العدل – العفة.

وبما أن الشجاعة فضيلة الحرب إذن تصبح الحرب ضرورة إنسانية، لكن لما ؟

ينطلق ابن رشد في تنظيره للحرب من منطلقات فلسفية وما يفرزه الواقع العربي آنذاك، معتمدا على مقولات أفلاطونية وأرسطوطاليسية يمكن أن نفصلها على النحو التالي:

١- الشجاعة فضيلة فن الحرب:

الإنسان الكامل في الخطاب الفلسفي لا يمكن الاعتراف بكماله إن لم يكن شجاعا لأن الفضائل الثلاث المتبقية لا توجد إلا بفعل الشجاعة فحسب.

فالعفة تتولد من شجاعة النفس في قهر الشهوة، ومحاربة الجزء الحيواني من النفس الخاضع لتأثير القوة الغضبية، والعدل يتحقق بإرادة أخذ الحق من الظالم وإعطائه لمستحقه، والحكمة تقتضي شجاعة النفس في إيثار الحكمة وطلبها رغم المشقة.

ومما سبق نلاحظ أن الفضيلة لا يوسم بها شخص ما أو جماعة أو مدينة إذا لم تكن الشجاعة المبدأ الأكثر حضورا مع الحكمة، يقول ابن رشد في الضروري: "ولما كانت

---

(١) راجع مبحث المدن الضالة من البحث.

الصناعة الحربية لا تبلغ كمالها إلا بفضيلة خلقية لها تقترب مما يجب في الوقت الذي يجب وبالمقدار الذي يجب، أعني فضيلة الشجاعة[1]".

٢- الحرب منهج تحصيل السعادة:

السعادة في شتى صورها كانت ولا تزال مطمح الفلاسفة والحكماء، وهدف تأملاتهم بل حتى الغاية التي دفع البعض حياتهم ثمنا لها، وابن رشد كباقي فلاسفة الإسلام حلم بالسعادة، وبنى مشروعا سياسيا يهدف إلى بناء تجمع إنساني فاضل قائم على ثنائية العقل والنقل، والسعادة لا يمكن حصولها في النفس إلا بعد مجاهدة صعبة تحتاج إلى نوعين من الشجاعة، الأولى شجاعة الإقناع والتي تتناسب مع أهل المدينة الفاضلة فقط، وتحتاج إلى ثلاثة وسائط: البرهان - الشعر - الموسيقى.

والثانية شجاعة الإكراه وتخص أهل المدن غير الفاضلة، لكونها جاهلة وتعتمد على قانون التغالب، ويمكن أن نلجأ إلى الإكراه داخل المدينة الفاضلة ذاتها إذا تعلق الأمر بالتأديب أو التعزير ومحاربة المتبدلين نلاحظ أن الإكراه ضرورة للتدافع وحفظ المجتمع الفاضل، يقول ابن رشد: "أما المدينة التي نتكلم عنها في هذه المقالة، فيندر وقوع مثل ذلك أعني التأديب الذي يكون بالإكراه، أما سائر الأمم التي هي من خارج فباضطرار يحدث فيها ذلك أن لا يكون الإكراه في الأمم الضالة بغير الحرب"[2].

٣- الحرب منهج تحصيل السعادة الإلهية:

الفرد العاقل المدرك لما يفعله ويحسه ويحدسه، ينشد السعادتين، خاصة السعادة الميتافيزيقية التي تتعالى عن السعادة الأرضية بوصفها جوهرا في ذاتها في حين السعادة المادية عرض، والشريعة الإسلامية تجعل من الشهادة في سبيل الله وإعلاء كلمته

---

(١) الضروري في السياسة،ص٨١.

(٢) المصدر السابق،ص ٨١ .

النموذج الأمثل للتقرب إلى الله، والوسيلة الفضلى لإعلان الولاء له والإذعان بالعبودية لسلطته، ولما كانت الشهادة مطلب المؤمن الواعي فإن حصولها مرهون بالحرب، ومنه تغدو الحرب مقدسة عند المسلمين والشهيد حي يرزق في ملكوت الله(١).

إن الجهاد كفريضة إسلامية هو في حقيقته حرب عادلة لأنها قائمة على مبدأين: التمكين للخير والعدل، إخراج العباد من عبادة العباد والأنظمة إلى عبادة العادل الأوحد.وثانيا التمكين لجماعة الأخيار والفئة العاقلة، والتي يحاول ابن رشد أن يُمهد لها من خلال الضروري. كما يوجد له تباشير فقهية في بداية المجتهد ونهاية المقتصد.

٤- حتمية التغالب والتدافع:

قانون التغالب أزلي أقره الله في سننه الكونية، والحكمة من وجوده هي إقرار التوازن بين العلاقات البشرية، وجعل الحياة تكتسي طابع الحركة والتبدل والتحول، لأن سكون الفعل الإنساني ينهي حركة التاريخ ويجعل من الحدث الإنساني مجرد وقائع متتالية لا تحمل معاني الحياة أصلا.

ليس من الغلو بمكان القول أن الله جعل في الحرب حياة لأولي الألباب، ومصطلح التدافع القرآني يعكس بوضوح ضرورة الصراع بين الناس، وحاول البعض أن يجعل الصراع بين الأخيار والأشرار بيد أن القرآن يفتح إمكانية قيام الحرب والصراع بين فئة الأخيار نفسها في قوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾(٢).

---

(١) (لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون).
(٢) سورة الحجرات: الآية ٩.

وابن رشد لم يتفطن إلى دلالة المصطلح القرآني [التدافع] لذا وظف نفس المصطلح الذي وظفه الفارابي التغالب وهذا التقاطع بين الفيلسوفين له ما يبرره، خاصة المرجعية الأفلاطونية. وقانون التغالب بموجبه تصبح الحرب الاضطرارية أكيدة، لأن مدن الغلبة تسعى إلى الحرب من أجل اكتساب الأمجاد: "وأما مدن التغلب، فهي المدن التي يقصد من اجتماع أهلها وسعيهم إلى الكمال قصدا واحدا: وهو قصد الغالب في الوصول إلى ما يضعه غاية لنفسه، وهو شهوة التسلط وحدها[1]". إنها فلسفة نزع الاعتراف من المدن الأخرى بالتغلب والقهر.

5- قيم الخير والشر تصنع الحرب:

يؤكد ابن رشد في الضروري في السياسة أن قيم الشر والخير هي التي تصنع الحرب، لأن التربية وعمليات التثقيف تعمل على إعداد الناشئة إعدادا حربيا، منمية في نفوسهم روح الشجاعة والإقدام، والتراث الإسلامي يبرز ذلك من خلال القاعدة التالية: "علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل."

فقيم الخير تحض على الاستمالة في القتال وعدم الهروب من المصير[الموت] لأن الموت على المبدأ خير في ذاته. فسقراط لم يهرب من السجن رغم توفر الأسباب وفضل الموت بالسم على أن يهرب من مصير محتوم، لأن هروبه يعني لا قيمة لفلسفته المؤسسة على الفضيلة والتي أهم ركائزها الشجاعة.

والمتنبي عبَّر عن الموقف السابق في قوله:

إذا كـــان مـــن الموت بـــد * فمن العجز أن تموت جبانـــا

كما أن قيم الخير تحض على التضحية بالنفس والنفيس، والمصابرة والمجالدة.

---

(١) الضروري في السياسة،ص .ص ١٨٧ .١٨٦.

والمحارب يوسم بالخير والفضائل كلما ازدادت مشاركته في الحروب، ويدخل التاريخ بفضل بطولاته، فالتاريخ أصلا بدأ بالتأريخ للبطولة.وقيم الشر تقترن بالجبن والتولي يوم الزحف. والمدن التي لا تحارب هي تلك المدن التي تخضع لحكم القلة، وعزفهم عن الحرب لعدم إدراكهم لقيم الخير والشّر: "ومن الشرور التي تحل بهذه المدينة [القلة] أنها لا تستطيع خوض الحرب أبدا(١)".

والمدن غير الفاضلة تلجأ إلى إصباغ صفة الخيرية على الحرب باعتبارها تحقق منفعة لأهل المدينة، في حين أن أهل المدينة الفاضلة يرون الحرب تكون خيرا كما تكون شرا، لأن المنفعة لا تحدد قيمة الحرب بل العقل والشرع.

٦ - تقلبات المدينة:

المدن تتشكل في كل عصر ومصر لأن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، غير أن طبيعتها تمتاز بالتبدل والتغير، أو ما يسميه ابن رشد بالتقلب، وابن رشد كالفارابي يقر بعدم ثبات المدينة سواء كنت فاضلة أو جاهلة.

ومعنى ذلك أن الدولة تتحول من حال إلى حال، فلا تبقى المدينة الفاضلة فاضلة أبد الدهر كما أن المدن الجاهلة يتحول بعضها إلى مدينة فاضلة، وهذا التحول في حد ذاته يفرض وجود الحرب، لأن كل تحول ينشأ بالحرب ويحسم بالحرب.

والمدن المتحولة من حالة الفضيلة إلى غيرها إنما تعود إلى الأسباب التالية:

١ - طلب اللذة:

طالب اللذة لا يتورع عن استعمال كل الوسائل الكفيلة بتحصيل اللذة وتمكين الشهوة، وبالتالي يصبح القهر والتسلط شيمة حاكم المدينة، ويسعى إلى نزع الاعتراف بالقوة من رعيته أولا، وعندما يحقق الرغبات والنزوات داخل مدينته تتملكه رغبة

---

(١) الضروري في السياسة، ص ١٨٥.

تحصيل الشهوات خارج نطاق المدينة، وبما أن أعراف أهل كل مدينة ترفض استباحة أموالها وتعتبر من الواجب الدفاع عن المال والمتاع كما هو الحال بالنسبة للنفس والعرض والأرض، فإن المتعطش للذة يشن الحرب وتصبح وسيلة قنص اللذة وحرفة للتكسب ونيل المآرب، وأغلب الحروب إنما تنشأ لدافع اقتصادي ولتأمين الغذاء ومستلزمات الحياة. وعندما تصبح اللذات عند طالبيها غير ممكنة التحصيل لعدم وجود كفاية في الأموال، فإن الحاكم المتسلط يضاعف الضرائب والجبايات، ويطلب زيادة في الخراج، لأجل تحقيق رغباته(١).

٢- طلب المجد:

وبعض البشر طباعهم تتجه نحو طلب المجد وتحصيل السؤدد، ويعتقدون أن المجد عنوان عزها ووجودها، ولذا تسعى إلى تحقيقه بكل الطرق وعلى رأسها الحرب، وتسمى المدينة عندئذ مدينة كرامية. والمجد يقترن بكثرة الحروب والعدة والعتاد كما كان الحال عند الرومان، ويرتبط من جهة أخرى بالشعر كمدون للانتصارات والمآثر(٢).

٣- طلب التفرد:

وبعض البشر جبلوا على التسلط الأحادي، فهمهم الوصول إلى السلطة وبسط النفوذ على جميع الرعايا وحكمهم بالقوة والبطش، وترويض كل رافض بالترهيب. ووحداني التسلط كما يرى ابن رشد همه الوحيد تجسيد ذاته المتعطشة للسلطة بالحرب والقتال(٣).

---

(١) المصدر السابق،ص ١٧٦.
(٢) المصدر نفسه،ص١٧٨.
(٣) المصدر نفسه،ص١٩١ .

ومن خلال المطالب الثلاثة، فإن المدينة الفاضلة تتحول إلى مدينة كرامية ثم إلى مدينة القلة، وبعدها إلى مدينة جماعية، ثم إلى مدينة وحداني التسلط.

إذا كانت الحرب ضرورية في [الضروري في السياسة] فما موقع السلم ؟؟

٢ - ٢ - السلم في الخطاب الرشدي:

قبل التطرق إلى السلم كمفهوم لابد أن نشير إلى كون السلم في الخطاب العربي إبان العصر الوسيط لم يكن هاجسا، يقلق النخب المفكرة، بل كان هاجس الحرب والصراع هوالمسيطر على بؤرة الشعور الجمعي، نتيجة وجود الآخر المخالف في الاعتقاد والثقافة واللون وحتى المكان، ومن جهة الآخر المنتمي إلى الأنا الجمعي المخالف في المصلحة والنزعة والعرق.

ومنه فالسلم لم يحضر في الخطاب الرشدي إلا حضورا ثانويا، وفي السياق التناص مع النص الأفلاطوني.

لكن ما السلم؟

السلم مصدر من فعل ثلاثي: سلم - السالم - المسالم - السلامة، وكلها مصطلحات تتجه في عمومها إلى معاني البراءة من كل ما يحمل الشر، أو العافية من كل بلاء، وجاء في لسان العرب أن السلم يرادفه في كلام العرب الصلح والبراءة، وبالتالي نلاحظ اتصاله بقيمة الخير والجمال، ولذا ربطه ابن منظور بما يلي:

١ - اسم من أسماء الذات الإلهية (السلام).

٢ - اسم من أسماء الجنة: "لهم دار السلام عند ربهم ".

٣ - اسم من أسماء الشجر: "والشجر رمز البركة والخير".

ومفهوم السلم عند ابن رشد لا يتعدى المفهوم الأفلاطوني: ضمان عدم قيام النزاع بين الجماعة وفق ما تمليه الشرائع (٣١).

ويمكن رصد الموقف الرشدي من السلم مما يلي:

أ – السلم ممكن وضرورة داخل المدينة الفاضلة، لأنها تسعى لتحصيل السعادة الفضلى والخير الأسمى، كما أن السلم يقترن بالعقل المتعقل لسلوكه ونزوعه: "وتنطوي على مبدأ ثالث هو الغضب، الذي يحارب في سبيل العقل، إن لم تفسده التربية[1]".

ب – السلم عند ابن رشد حالة غير دائمة ومشروع محكوم عليه بالفشل لكون المدن متحولة ومتبدلة من حال لحال.

ج – السلم ممكن داخل المدينة الجماعية رغم كونها مدينة جاهلة – تشبه إلى حد ما الدولة الديمقراطية اليوم – لأن المدينة الجماعية يعتقد أفرادها بالمساواة المطلقة، وكلهم سيد وحر. ونتيجة لهذا الشعور السياسي المفرط فكل مواطن يمنع الآخر من القتال والمغالبة، لأن المساواة بين أطراف متساوية في الحقوق والواجبات يحقق مبدأ العدل، وقد نبه أرسطو أن سبب النزاعات يعود أصلا إلى ما يلي:

١ – حصول أناس غير متساويين على حصص متساوية.

٢ – تقسيم حصص متساوية على أطراف غير متساوية.

وبما أن المدينة الجماعية يذوب الفرد في الجماعة ذوبانا كليا فإن الجماعة تحوي الفرد ويصبح القانون هو السيد والفيصل، يعلق ابن رشد على ذلك شارحا: "وبين أنه لا سيادة (المدينة الجماعية) إلا بإرادة المسودين أو تبعا للقوانين الأولى، لأنه يظن أيضا في هذه المدينة أنه لا ينبغي أن يسمح لكل واحد من الناس أن يفعل ما يشاء، لأن هذا يقود إلى أن يقاتل بعضهم ويسلب البعض منهم البعض الآخر[2]".

ونخلص من خلال النقاط السابقة إلى السؤال التالي:

---

(١) أفلاطون، الجمهورية، ص ١٩١.

(٢) الضروري في السياسة، ص ١٧٤.

إذا كان السلم ممكن في التجمعين السابقين، فما هي أدوات وآليات تأسيس مشروع السلم من خلال الضروري في السياسة ؟؟؟

ينطلق ابن رشد من القاعدة التالية: السلم باعتباره عرضا لا جوهرا، فإنه لا يتأسس من كون الاجتماع ذاته حالة عريضة، خاصة في المدن غير الفاضلة، يعبر عنه في قوله: "والاجتماع في هذه المدن ضرورة، إنما هو اجتماع عرضي (١)".

لكن رغم عرضية السلم وحضوره كحلم في الخطابات الفلسفية الحالمة، فهو قابل للتمثل والتجسد واقعيا من خلال القاعدتين التاليتين:

١- الإيمان بمبدإ الحرية:

من منطلق كون الحرية فعل ناتج من التأمل العقلي الواعي، فالناس عندما يؤمنون بأنهم أحرار يعاملون بعضهم البعض بروح المسؤولية، ويرى كل مواطن نفسه في الآخر عندئذ تختفي مظاهر النبذ والقهر، والعنف والبطش، واستقى ابن رشد هذا المبدأ من أفكار أهل المدينة الجماعية: ".. وهذه المدينة هي التي ترى العامة فيها أنها أحق بالحرية، لأن كل واحد منهم فيها، يعتقد ببادئي الرأي أنه أحق بأن يكون حرا (٢)".

لكن الإيمان بالحرية عند بن رشد يحقق السلم ظرفيا، لأن الإيمان بالحرية يتحول إلى اعتقاد أن يفعل الفرد ما يشاء، عندما يقع التجاوز وتكثر المظالم باسم الحرية، فيتحول حكم الجماعة إلى حكم القلة أو الصفوة، أين يكثر الإكراه بالقوة مما يمهد لقيام الحروب (٣).

---

(١) المصدر نفسه،ص ١٧٥.
(٢) المصدر والمكان نفسه.
(٣) المصدر السابق،ص ١٧٥.

٢- العدل:

لا يخلو خطاب فلسفي أو ديني من الدعوة إلى العدل، لأن العدل قيمة خلقية وإنسانية منذ أن وعت البشرية وجودها، وأصل المآسي تعود إلى وجود الجور والظلم، واغتصاب حقوق المستضعفين، ويكفي الظلم باعتباره نقيضا للعدل أن الله حرمه على نفسه أولا ثم على عباده.

وابن رشد حاول أن يركز على العدل بصورة ملفتة للانتباه، لقيام سلام حقيقي داخل المدينة الفاضلة، وأن السلم المدني ممكن التحقق لو عدل الناس وتناصفوا.

والحاكم الفاضل هو الذي يقدر أن يحقق العدل في التوزيع وأن ينزل الناس منازلهم ويقسم المراتب والشرف على قدر منازل أهل مدينته، وبذلك فأسباب الحرب بين البشر تنحل من ذاتها، وينجو الإنسان من نير الحرب وينجو نحو السلم والتعايش، ويجنح للمبدأ الإلهي "ادخلوا في السلم كافة."

إن مقولة الحرب أشمل من مقولة السلم في الخطاب الرشدي، لكون ابن رشد كان يعيش في زمان ومكان يفرض منطق الحرب على الجميع.

نكون بهذه المسألة قد أنهينا أهم النقاط الرئيسة في كتاب ابن رشد الضروري في السياسة، بالرغم من وجود كثير من المسائل التي تصلح أن تكون موضوعا للبحث.

والسؤال الذي سنطرحه في الختام هو: ماذا نستفيد من ابن رشد اليوم؟؟ وهل يمكن أن نستحضره اليوم لكي نفكر من خلاله في مشاكلنا الراهنة.